أحمد المطلبي
- أبحاث ندوة علم النفس، القاهرة، 1989.
- المعهد العالمي للفكر الإسلامي 1413هـ/1993م، ص5 [19 صفحة من القطع المتوسط].
- لغة البحث (الكتاب): اللغة العربية.
- مجال البحث (الكتاب): الصحة النفسية (العلاج النفسي) – التراث الإسلامي.

❑ ❑ ❑

نظر الباحث نظرة معالج نفسي في تراث ابن قيم الجوزية (691–751هـ) محدداً أربعة كتب من كتبه: «الفوائد، الروح، الطب النبوي، مدارج السالكين».

ومن خلال المفهوم الذي تحدث عنه ابن القيم واعتمده في كتبه وهو مفهوم «طب القلوب».

حيث يبدأ ابن القيم بمعرفة النفس التي هي السبيل لمعرفة الله سبحانه وتعالى وإفراده بالتوحيد والعبودية له، أي أن يكون الإنسان «لله ومن الله وبالله» ولا أحد سواه. فمتى ما أصبح العبد وأمسى وليس همه إلا الله وحده تحمل الله سبحانه حوائجه كلها... وإن أصبح وأمسى والدنيا همه حملّه الله همومها وغمومها وأفكارها ووكله إلى نفسه فشغل قلبه عن محبته بحب الخلق.

وإذ يذكر الإنسان ربه على هذه النحو ويحصل له الإحساس بالطمأنينة ليتمتع الإنسان المؤمن حينها بلحظات الأمن والسكون والصفاء.

* ثم يدخل الباحث في مفهوم الطمأنينة حيث يقسّمها إلى أنواع ودرجات لتدخل كلها في وصف النفس المطمئنة، ثم أوصاف النفس اللوامة وهي إما لوامة ملومة كنفس جاهلة ظالمة يلومها الله والملائكة، وإما لوامة غير ملومة تلوم صاحبها عن تقصيره في طاعة الله، ثم أوصاف النفس الإمارة التي تأمر بكل سوء إلا ما وفقها الله وثبّتها وأعانها.

وابن القيم في أوصافه لهذه الأنفس الثلاثة يراها حالات مختلفة لنفس واحدة.

* أما الصراع النفسي فيصوره ابن القيم كحرب قائمة بين النفس الأمارة (وقرينها الشيطان) والنفس المطمئنة (وقرينها المَلَك)

أما مرض أو أمراض القلوب فإن الباحث يخلص من كتب ابن القيم إلى لوحة أو جدول يعرض فيه أمراض القلوب وما يقابلها من أصول للخطايا والمعاصي وعلاقتها ببعضها وما يضادها من فضائل، علماً بأن ابن القيم يستخدم مصطلح القلب بدلاً من مصطلح البدن أو كناية عنه.

وفي أدناه الجدول الذي خرج به الباحث:

أمراض القلوب	أصول الخطايا	الخطايا	أصول المعاصي	المعاصي	تعلق المعاصي بعضها ببعض	أصول الخير
مرض الشبهة	الكبر (نموذج إبليس)	الكفر	تعلق القلب بغير الله	الشرك	الشرك مع الظلم، الفاحشة	التوحيد
مرض الشهوة	الحرص (نموذج آدم)	المعاصي	طاعة القوة الشهوانية	الفاحشة (كالزنا)	الفاحشة مع الشرك، الظلم	العفة
مرض	الحسد (نموذج قابيل)	البغي والظلم	طاعة القوة الغضبية	الظلم (كالقتل)	الظلم مع الشرك، الفاحشة	العدل

* ثم يذهب الباحث إلى مفهوم (الطبيب الكامل) عند ابن القيم ماراً على مصطلحات:

المرض، المريض، العلاج، وسيلة العلاج، طريقة العلاج، هدف العلاج. ويراها الباحث أنها تصلح كميثاق عام لممارسة العلاج بشقيه - البدني والنفسي - ودستوراً لأخلاقيات المهنة وآدابها.

والطبيب الكامل عند ابن القيم هو «العارف بأمراض القلب والروح وعلاجها».

فالحاذق في علاج الطبيعة وأحوال البدن نصف طبيب (غير كامل) ذلك أن العلاجات الإلهية ضرورية ونافعة في علاج البدن والقلب معاً.

* ثم ينتقل الباحث ليرسم لوحة أخرى كتصور نظري للعلاج النفسي عند ابن القيم حيث يضرب المثل بالطبيب الكامل بالمصطفى ﷺ حيث كان يستخدم في علاجه كافة الأدوية: الطبيعية والإلهية والمركبة، بيد أن علاج القلوب وصلاحها هو المقصود الأول من شريعته.

ويكشف ابن القيم نوعاً شريفاً جداً من أنواع العلاج النفسي وهو الإرشاد إلى ما يطيّب نفس العليل من الكلام الذي تقوى به الطبيعة وتنتعش به القوة وينبعث به الحار الغريزي فيتساعد على دفع العلة أو تخفيفها الذي هو غاية تأثير الطبيب.

* أما عن شخصية المعالج فيركز ابن القيم بالدرجة الأولى على إقامة علاقة إيجابية مع المريض، فعند العلاج بالرُقْية فإن نفس الراقي تفعل في نفس المرقي فيقع بين نفسيهما فعل وانفعال - كما بين الداء والدواء - فتقوى نفس المرقي وقوته بالرقية على ذلك الداء فيدفعه بإذن الله.

ثم يعرج الباحث إلى تحديد تقنيات نفسية مفيدة في تمهيد العلاج وبدئه ودفع المرض أو التخفيف منه وتقليل الآلام النفسية للشخص المريض، منها:

- إزالة المرض بالضد: فمخالفة هوى النفس أعظم دواء له (أي للهوى).
- التفويض: فالالتجاء إلى الله وتفويض الأمر إليه رجوع إلى طبيعة الإنسان (مثل: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم).
- التأسي (التماهي) أي التأسي بأهل المصائب ليؤدي إلى خفض الكرب أو الحزن لدى المصاب.
- إلتماس العوض: فالصبر على البلية مقابل الثواب وتحمل مرارة الدنيا مقابل حلاوة الآخرة.
- الإثارة الإنفعالية فمتى ما حصل للقلب ابتهاج وسرور دفع عنه ألم الكروب والهم والغم.

* وأخيراً، وبعد استعراض الباحث لمفاهيم وأساليب العلاج النفسي عند ابن القيم يقدم تقويماً نقدياً شاملاً لها يمكن تلخيصه بالنقاط الآتية:

- أن معيار الاطمئنان وصحته معيار عقائدي محض لا يقف عند حدود المعاش في الحياة الدنيا دون المعاد في الحياة الأخرى.
- الإنسان الذي يخاطبه ابن القيم إنسان عارف بالله سالك إليه، ومن هنا فإن طب القلوب (كما يرى الباحث) مقصوراً على فئة من الناس دون غيرهم.
- إن تركيز العلاج على النفس المطمئنة بجعل طب القلوب عند ابن القيم طباً للأخيار وحدهم، لأن النفس المطمئنة هي أقل النفوس البشرية عدداً.
- يرشدنا ابن القيم إلى مبدأ هام من مبادئ العلاج النفسي وهو طبيعة المريض نفسه وقوة إيمانه ويقينه وإرادته.

❑ ❑ ❑

عناوين رئيسة:

الصحة النفسية، العلاج النفسي، الطب النبوي، طب القلوب، النفس المطمئنة، النفس اللوامة، النفس الأمّارة، أمراض القلوب.

❑ ❑ ❑

ملاحظات:

- لا شك أن الباحث نظر في جانب العلاج النفسي دون العلاج البدني لابن القيم وهذا لا يلام به الباحث لأن ذلك عنوان بحثه. إلا أن الطب النبوي (المادي، الطبيعي أو العلاج بالدواء) لم يكن بعيداً عن العلاج في الجانب الروحي أو النفسي، وقد يتداخلان كثيراً.
- لقد عكس الباحث الوجه الصوفي لابن قيم الجوزية، وهو وجه مشرق فيه، إلا أنه ليس كل وجه ابن القيم، فهو تلميذ شيخه الجليل ابن تيمية

الذي كان حرباً ضروساً على الممارسات الخارجة عن الإسلام والتي وضعت تحت عباءة أو خيمة الصوفية في زمانهما معاً. وكان بودي لو أن الباحث لم يعط هذا الانطباع عن ابن القيم من خلال إيراده اقتباسات كثيرة أخرى يمكن أن تضيء الجوانب الأخرى المكمّلة عند ابن القيم رحمه الله.

❑ ❑ ❑

obeikandl.com